رواية هذا العدد

نابليون والمغنية جورج

وضعت الكاتبة الفرنسية جيرترودا عام ١٩١٢ كتابا أسمته « نساء نابليون » وقد جمعت فيه حوادث غرام نابليون الأول واعتمدت فيما كتبته على مذكرات تاريخية صادقة لا ريب فيها ومن تلك القصص رواية الكورسيكي العظيم مع المغنية جورج . ومعلوم أن ذاك الفاتح العظيم كان شديد الخشونة في معاملته للنساء فلم يكن يحفل بهن وما كان يعيرهن ذلك الالتفات فلا تؤثر فيه نظراتهن الحادة ولا مغازلتهن الجذابة وكثيرا ما كانت كثيرات من النساء يخرجن من لدنه غاضبات ساخطات متوعدات بالانتقام على الاهانة التي يلحقها بهن بعدم خوض بحار الغرام والسير في أودية الهيام ولكنه خالف هذه القاعدة مع المغنية جورج التي سلبت لبه وكهربت فؤاده بلحاظها الجذابة وعقوبة ألفاظها وما اتصفت به من غنج ودلال حتى جعلته يوجودها رقيقاً لطيفاً . نعم ان هذه الرواية حدثت عندما كان قنصلا أولا لباريس ثم أضحى بعد ذلك أمبراطوراً

ان الاسم الحقيقي للدموازيل جورج هو مارغريت جوزفينا فايمير وما كان يدور بخلدها في أيام حداثتها أنها ستصبح يوما ما خليلة لبونابارت . وقد ولدت من أسرة كانت تتعاطى الغناء في الشوارع وعلى أبواب الخانات والمطاعم . وكان أبوها يطوف مدن فرنسا مع فرقة من المغنين والمغنيات يغنون في الشوارع والمطاعم والحدائق وكانت ابنته المذكورة رشيقة القوام خفيفة الحركة ذات طرف كحيل وقد أسيل وجبين وضاح ووجه مشرق كشمس الصباح وقد بدأت حياتها المسرحية في فرقة والدها .

ولما بلغت الخامسة عشرة من سنها قدمت باريس والتحقت بأحد المسارح حيث عهدوا اليها تمثيل أدوار نساء روايات راسين اللاتي كن يلعبن دوراً هاما في تلك الروايات وقبل أن عرفها نابليون تعشقها شقيقه لوسين ثم غدت خليلة لأمير بولوني نبيل غني يدعى سابيني وبعد هذا نالت حظوى في عيني بونابارت القنصل

الاول لمدينة باريس فقد رآها ذات مرة على المسرح فافتتن بها وأضرمت في فؤاده نار الغرام المستعرة . وحسب عاداته المتبعة في حبه أمر أن يحضروها اليه .

ولما بلغت هذه الممثلة سن السبعين أي في عام ١٨٥٦ شرعت في تدوين مذكراتها وقد عثروا على هذه المذكرات سنة ١٩٠٣ أي بعد ٤٧ سنة من تدوينها وقد وصفت مقابلتها الاولى لنابليون كما يأتي :

حدث ذلك في شهر دسمبر من عام ١٨٠٢ فان المسيو كونستان بلور القنصل الاول أجلسني بعربة الى جانبه وأوصاني الى سان كلود حيث أدخلني الى غرفة واسعة أنيقة الرياش وقال انتظري هنا . ولما لبثت وحدي أخذت تساورني الافكار وهجمت على صدري الهواجس والوساوس وتصورته رجلا شرساً مستبداً خشن الطباع حاد الكلام يصدر أوامره حتى في الحب ويظهر سؤدده وجبروته في الغرام وما كان أشد دهشتها عندما دخل عليها نابليون بوجه باش وثغر باسم ورحب بها بكلمات غالية في الرقة وساعدها على خلع معطفها وأخذ عن كتفيها الشال الكشميري ولم تبدر منه لفظة واحدة قاسية بل لاطفها وجعل يداعبها مداعبة الام لطفلها ولما كان يمثل دور المزاحم الشديد الغيرة فانه تناول قبعتها التي كان أحدهما انيبا خليلها سابقي ومزقها إرباً إرباً . ثم أمرها أن تروي له تاريخ حياتها بالاسهاب وشدد عليها بأن لا تترك شاردة أو واردة إلا روتها له وأصغى كل الاصغاء لما روته على مسامعه من تاريخ حياتها والادوار الغرامية التي مثلتها فأشرق وجهه سروراً لان روايتها وافقت ما كان جمعه عنها من المعلومات بواسطة ثقات عهد اليهم ذلك من قبل . ولما أنهت حديثها قال لها : « مسكينة أنت أيتها الفتاة ! لقد قضيت حياتك في البؤس والشقاء وتحملت كثيرا من شظف العيش » وقد أثرت هاته الكلمات في نفسها تأثيراً شديداً وقد تغلب بها على فؤادها الذي مال اليه

وكان قد فتح حديثه أولا معها بأن سألها عن اسمها ولما كان اسم جوزفين غير محبوب لديه لاسباب معلومة طلب اليها بلطف وظرف أن تغيره بجوزجينا فاجابت طلبه بطيبة خاطر وبوجه الاجمال كانت توافقه على كل طلب يطلبه منها بدون تردد ولا امتعاض وتظهر له الخضوع والرضى وتتساهل في كل شيء ووعدته وعداً

قاطعاً بانها لا ترتدي من الآن فصاعدا شيئاً مهدى لها من زائريها وخصوصاً من الامير سايبغي الذى حسب طلب نابليون اضطرت أن تعد بتناسي حبه وعدم السماح له بزيارتها وقد قبلت بهذه التضحية . أجل ان سايبغي كان أميراً جليلا نبيلا ولكنه لم يكن على كل حال القنصل الاول لباريس

وفي اليوم التالي عرف جميع أهالي باريس أن المدموازيل جورج زارت سان كلو وانها خلبت لب سيد العالم

وبعد عدة أيام من مقابلتها الاولى قصد نابليون المسرح الذي كانت تمثل به تلك الفاتنة الحسناء وحيث مثلوا في تلك الليلة رواية « تسيفي » وكانت جورجينا تمثل دور اميليا ولما برزت بدورها على المسرح قالت العبارة الآتية بصوت جهوري رنان : « انني خلبت لب تسيفي وسأخلب لب آخرين » فقابل السامعون هذه العبارة بالتصفيق الحاد المتواصل وأصوات التهليل والتحبيذ . وتوجهت الانظار جميعها وتطاولت الاعناق الى جهة القنصل الاول الذي كان جالساً في أبعد الالواج وقد أعجبته هذه الطريقة التي لجأت اليها الممثلة .

ان جورجينا صادفت هوىً في نفس نابليون وحسنت في عينيه جداً ولا عجب في ذلك فانها فتاة هيفاء في سن الخامسة عشرة ذات جسم مملوء وكانت بضة البشرة لها صدر يتلألأ كالبلور الصافي وعينان تجلاوان اذا أطلقتا سهامهما جرحتا الافئدة وطعنتا الصدور وفوق هذا وذاك فانها كانت خفيفة الروح عذبة الالفاظ ذات ذكاء حاد وفهم عجيب . وكانت اذا اجتمعت بنابليه بما ترويه على مسامعه من الروايات المضحكة والفكاهات المستملحة وقصص الممثلين والممثلات وما يحدث بينهم من النزاع وراء المسرح وكان يصغي اليها فل الاصغاء ويقهقه أحيانا من شدة السرور وقد جذبته اليها برقة حديثها وروايتها وانزت عليه بها أكثر من تأثيرها عليه بجمالها وكان في مجلس جورجينا لطيفاً أنيساً ضحوكا كالولد وكان يقوم بحركات لم يسبق له أن يعمل مثلها عندما كان يلعب مع الاولاد رفقائه في صغره . وقال كونستان ان نابليون في مجلسها يكون مسروراً منشرح الصدر بل تزول عنه الهموم والغموم اذا كان الى جانبها .

وقالت جورجينا : حضرت مرة الى سان كلو ولما وصلت اليه قال لي كونستان: ان القنصل في الدور الاعلى ينتظرك فصعدت ودخلت الغرفة فلم أجده فبحثت عنه في الغرف الاخرى وجعلت أناديه بأعلى صوتي فلم يرد عليّ ولم اقف له على أثر وعند ذلك ناديت كونستان وقلت له لعل القنصل تحت ؟ فأجابني كلا أيتها السيدة انه عندك ابحثي عنه وأشار لدى ذلك بطرف عينه الى باب قاعة الاستقبال الصغيرة وما كنت دخلتها فوجدته فيها وقد اضطجع على القعد المستطيل وغطى نفسه بالمساند وكان يضحك بكل قوته .

ودخلت عليه مرة ثانية فوجدته قد وضع على رأسه اكليلا من الورد الابيض وأرسل خصلا من الشعر الصناعي الاسود الذي يشبه شعرها على سالفيه وبادرني بقوله : كيف تجدينني ياجورجينا ! أليس اني جميل بهي الطلعة ؟ ثم ضحك وقال أليس اني أشبه الذبابة في اللبن ؟ وبالاجمال فانه كان في مجلسها دائما أبداً هاشاً باشاً يحاول أن يخلع عن نفسه ثوب المهابة والوقار ليكون انساناً بسيطا يتمتع بملاهي الحياة ولذاتها

وكتبت جورجينا مرة رسالة الى صديقتها السيدة ديبورد فالمور وقد نشر هذه الرسالة جول كلاريتي عام ١٩٠٣ فقط وقد روت جورجينا فيها لصديقتها مقابلتها الاخيرة لنابليون قبل سفره الى معسكر بولون قالت :

جاءوني الساعة الثامنة مساء وأخذوني الى سان كلو حيث أدخلوني الى غرفة مجاورة لغرفة النوم وقد قابلني في هذه الغرفة أول مرة وهي غرفة مكتبه ولم انتظر كثيراً حتى دخل علي القنصل وقال :

لقد دعوتك اليّ أيتها العزيزة جورجينا قبل الوقت المعتاد لاني أردت أن أراك قبل سفري .

— فقلت له : يا إلهي ! هل أنت مسافر ؟

— نعم غداً عند الساعة الخامسة صباحاً سأسافر الى بولون ولا أحد يعرف شيئاً عن هذا غيرك .

ثم جلسنا كلانا على الارض على بساط ثمين وسألني قائلا :

—هل تأسفين على فراقي ؟

— أن فراقك يؤلمني ويحزنني جداً

— كلا — كلا اني أرى أن فراقي لايهمك مطلقاً ولا يحزنك ثم وضع يده على صدري وقال بصوت منبعث رقيق والحزن باد على محياه الوضاح : أن هذا القلب لايخفق جزعاً على فراقي

والله يعلم كم كنت أحب في تلك الدقيقة أن ادفع ثمنا للدموع ولكن دموعي جمدت في عيني

ثم لبثنا جالسين صامتين برهة من الزمان حول الموقد المضطرمة فيه النار وأن براعي ولساني يعجزان عن وصف تلك الفترة وما قاسيته فيها من الآلام الداخلية التي كادت تمزق أحشائي وقد سقطت من عيني ضد ارادتي دمعتان كبيرتان على وجهي فجعل القنصل الاول يقبل هاتين الدمعتين وعطف عليّ عطفاً شديداً يفوق حد الوصف فمس بذلك صميم فؤادي وأخذت دموعي تنهمل كالمطر الغزير وجعلت أشهق وأصعد الزفرات

وأنى لي أن أصف لك تلك الدقائق التي سكر فيها نابليون بالسعادة والغبطة ولو طلبت اليه حينئذ أن يهديني قصر التيوليري لما تأخر فقد طاب نفساً وانشرح صدراً وأخذ يضحك ويداعبني ويلاعبني بل يجعل يركض في الغرفة وأنا أركض وراءه لأمسكه وقد تسلق في أثناء هربه سلماً كان في الغرفة مركباً على عجلات فجعلت أدفع ذلك السلم بشدة فيجري في الغرفة الى هنا وهناك فكان يضحك وقال : كفي عن هذا والا فاني أغضب .

وبعد أن مثلنا أدوار اللعب هذه وكنا نشعر بأجنحة السعادة ترفرف علينا ودعني والدمع يغرقرق في عينيه ثم وضع في يدي غلافاً يحتوي على أربعين ألف فرنك لانه لم يرد أن تبقى حبيبته جوزجينا في غيابه بدون مال

ولبثت علاقات الوداد متصلة بين نابليون وجوزجينا بعد رجوعه الى باريس وانتقاله الى قصر التيوليري وقد صادفت على أثر ذلك مصاعب جمة وحوادث جسيمة جرحت وآلمت شعورها . وعندما وضع التاج على رأسه جعل حبه يفتر وانطفأت جذوته المشتعلة واذا قابلها فلم يكن يعاملها تلك المعاملة السابقة بل انه يقابلها بعظمة وأضحت

لاتصل اليه الا بعد الاستئذان والانتظار الطويل . لقد أصبح امبراطوراً وأراد أن يظهر سيادته والتغيير الذي طرأ عليه . وقالت جورجينا أن الامبراطور تغلب على التفصل وحلت العظمة محل اللطف ،والسياسة والغطرسة محل الرقة والكياسة والظرف

أجل أن الامبراطور كان محاطاً بالعظمة وجلال الملك ولكن السعادة بعدت عنه بعد الماء عن السماء .

وقابل جورجينا ذات يوم اسكندر دوماس الروائي الشهير وسألها : لماذا هجرها نابليون ؟ فأجابته بعبارة مسرحية جرت في فرنسا مجرى المثل حيث قالت له : « أنه ذهب من عندي ليكون امبراطوراً »

ومع كرم نابليون ومدده ايها بالمساعدات المالية كانت جورجينا مثقلة بالديون في باريس وقد قصدت بعد ذلك بطرسبرج بدعوة من صديقها الكونت بنكيندورف وحاولت هناك أن تصطاد شخصاً سامياً جداً فنجحت ولكن الى وقت قصير ولبثت في بطرسبرج اربعة فصول مثلت في خلالها أدواراً هامة على مسارحها كما مثلت بجمالها عدة أدوار غرامية وأرغمتها حرب عام ١٨١٢ على مغادرة روسيا وفي عام ١٨١٣ مثلت أمام بليون في درسدن في المسرح الملكي ولكن مع الايام أفل نجم سعدها بأفول نجم سعد نابليون . وفي خلال مائة يوم وهبها الامبراطور من أمواله الخاصة ٢٠ الف فرنك ذلك أن حبيبا كان له مكان خاص في فؤاده

ولما تقدمت في السن حاولت الظهور في مسارح الاقاليم في فرنسا وخارجها ولكنها لم تصادف النجاح المطلوب وقد قضت مدة من الزمان مع مدير المسرح توم غاريل الذي توفي عام ١٨٤٦ وعاشت بعده ١٨ عاماً . وتوفيت عام ١٨٦٤ ولها من العمر سبعون عاماً . وفي أثناء شيخوختها عين لها الملك جيروم عشرة آلاف ثم عشرين الف فرنك وفوق هذا كانت تتقاضى راتب تقاعد من الحكومة لانها كانت ممثلة في المسرح الملكي ولكن هذا الايراد الضئيل لم يكن يفي بنفقات امرأة كانت تنفق الالوف بدون اكتراث

الايادي السوداء تطعم خبزاً أبيض . « جونسن »